جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

التناص التاريخي في شعر مصطفى سند- دراسة سيميائية

Historical Intertextuality in Mustafa Sanad's Poetry - A Semiotic Study

إعداد

د. نورة هَصَّام مسفر آل داهش

مُحاضرة بكلية العلوم الإنسانية وآدابها بجامعة الملك خالد

د. خالد عباس مصطفى

أستاذ الأدب والنقد المشارك بكلية العلوم الإنسانية وآدابها بجامعة الملك خالد

(العدد الثالث والأربعون)

(الإصدار الثاني- مايو)

(الجزء الثالث (١٤٤٥هـ /٢٠٢٤م)

الترقيم الدولي للمجلة (ISSN) 2536- 9083
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٤/٦٢٧١م

التناص التاريخي في شعر مصطفى سند- دراسة سيميائية

نورة هَصَّام مسفر آل داهش

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الإنسانية وآدابها، جامعة الملك خالد، أبها، المملكة العربية السعودية.

خالد عباس مصطفى

قسم اللغة العربية وآدابها، كلية العلوم الإنسانية وآدابها، جامعة الملك خالد، أبها، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: *nmosfer@kku.edu.sa*

الملخص

يهدف هذا البحث إلى دراسة أشكال التناص التاريخي المُتجلية في نصوص الشاعر مصطفى سند، معتمدًا في قراءتها على معطيات المنهج السيميائي.

الكلمات المفتاحية : الشعر، التناص التاريخي، السيميائية، مصطفى سند.

Historical Intertextuality in Mustafa Sanad's Poetry - A Semiotic Study

Nourah Hassam Mosfer AL Dahish.
Department of Arabic Language and Literature, College of Humanities and Literature, King Khalid University, Abha, Kingdom of Saudi Arabia.
Khaled Abbas Mustafa
Department of Arabic Language and Literature, College of Humanities and Literature, King Khalid University, Abha, Kingdom of Saudi Arabia.

Email: nmosfer@kku.edu.sa

Abstract:

This research aims to study the forms of historical intertextuality manifested in the texts of poet Mustafa Sanad, relying on the data of the semiotic method.

Keywords: *Poet, Historical Intertextuality, Semiotics, Mustafa Sanad.*

مقدمة

تعد ظاهرة التناص إحدى الظواهر الأدبية، والمفاهيم النقدية التي استهدفت قراءة النصوص قراءة عميقة في ضوء علاقتها بنصوص أخرى سابقة عليها أو معاصرة لها؛ لإخراج ما في تلك النصوص من أبعاد دلالية وقيم جمالية.

والتناص يتجلى في عدة أنواع، كالتناص الديني، والأدبي، والأسطوري، والتاريخي موضوع هذه الدراسة، والذي يعد خيطًا ممتدًا يصل الماضي بالحاضر، ويسهم في إغناء النصوص الشعرية.

وتوظيف الشاعر لهذا النوع من التناص يُظهِر مدى وعيه بالتراث وصلته به، ورغبته في إثراء تجربته الشعرية بما فيه من أماكن وأحداث وشخصيات.

الأسباب التي دعت إلى اختيار هذا الموضوع هي:

١- أهمية هذا النوع من الدراسات التي تسهم في سبر أغوار النصوص، وفهمها، وفك الكثير من مغاليقها.

٢- قلة الدراسات التي تناولت شعر مصطفى سند، وعدم وجود دراسة مستقلة للتناص التاريخي في شعره.

أهداف البحث:

١- تحديد أشكال التناص التاريخي في شعر مصطفى سند، وبيان قيمتها الفنية.

٢- بيان أثر التناص التاريخي في فهم نصوص المدونة، والكشف عن جمالياتها.

منهج البحث:

اعتمد البحث على المنهج السيميائي؛ لاشتغاله على دراسة الدلالات الإشارية والتأويلات الخارجية.

مشكلة البحث:

تمثلت مشكلة البحث في مقاربة شعر مصطفى سند، وقراءته قراءة تناصية تفاعلية؛ للكشف عن التعالقات التناصية التاريخية وفاعليتها الدلالية والجمالية داخل دواوينه.

التمهيد

أولًا: تعريف التناص:

التناص في اللغة مصدر للفعل تناصّ، و"تناصّ القوم ازدحموا" [١]، وهو بهذه الدلالة يوحي باقتراب معنى التزاحم من معنى تفاعل النصوص وتداخلها.

والتناص مصدر قياسي على وزن (تفاعل): تناصص، ومن معاني هذا الوزن في اللغة: المشاركة بين اثنين فأكثر، الدلالة على التدرج، المطاوعة، [٢] ولفظ التناص يحمل هذه المعاني.

والتناص اصطلاحًا هو ترجمة للمصطلح الفرنسي (intertext)، إذ تعني (inter) في الفرنسية "التبادل"، بينما تعني كلمة (text) النص، ومن مركب هاتين الكلمتين يأتي معنى " التبادل النصي"[٣].

عرفه الكثير من الباحثين والدارسين، ومنهم الناقد محمد عزام الذي قال بأنه: "تشكيل نص جديد من نصوص سابقة أو معاصرة، بحيث يغدو النص المتناص خلاصة لعدد من النصوص التي تمحي الحدود بينها، وأعيدت صياغتها بشكل جديد، بحيث لم يبق من النصوص السابقة سوى مادتها، وغاب الأصل فلا يدركه إلا ذوو الخبرة والمران"[٤].

---

(١) المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م، (مادة نصّ)، ص٩٢٦.

(٢) ينظر: معجم الأوزان الصرفية، اميل بديع يعقوب، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ =١٩٩٢م، ص١٦٢، ١٦٣.

(٣) التناص في شعر الرواد، أحمد ناهم، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م، ص١٩.

(٤) النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي)، محمد عزام، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ٢٠٠١م، ص٢٩.

واستخدم الباحثون عبارات تدل على مصطلح التناص، ومنها: تفاعل النصوص، تعالق النصوص، تداخل النصوص، تشابك النصوص، النصوص المهاجرة والمُهاجَر إليها، النصوص الحالَّة والمُزاحة.

وتعود جذور مصطلح التناص إلى (ميخائيل باختينM. Bakhtine) الذي أسس له في كتابه (شعرية دوستويفسكي)، وقد تمثل ذلك في مصطلح الحوارية[١].

وكانت دراسة باختين لنصوص دوستويفسكي الروائية، وقد تمثلت فيها الحوارية. واستفادت من ذلك الباحثة (جوليا كريستيفا Julia Kristeva) لتجهر بمصطلح التناص لأول مرة في النظرية النقدية الحديثة في الستينيات من القرن العشرين. من خلال أبحاثها التي كتبتها ما بين عام ١٩٦٦م و١٩٦٧م، وأصدرتها في مجلتي: (تل كيل Tel quel)، و(كريتك Critique)، ويظهر ذلك من خلال تعريفها للنص بأنه "ترحال للنصوص وتداخل نصي، ففي فضاء نص معين تتقاطع وتتنافى ملفوظات عديدة مقتطعة من نصوص أخرى"[٢].

---

(١) وفيه يقول باختين: " إن العمل الأدبي، والروائي بوجه خاص، إطار تتفاعل فيه مجموعة من الأصوات أو الخطابات المتعددة إذ تتحاور متأثرة بمختلف القوى الاجتماعية من طبقات ومصالح فئوية وغيرها، ...، وبَيَّن أن روايات دوستويفسكي تتميز بتعدد الأصوات وتمتعها بحرية الاختلاف، حيث يسمح الكاتب لمختلف الشخصيات بالتعبير عن اختلافها بعيدًا عن هيمنته كروائي، وهو ما يجعل رواياته حوارية": من كتاب دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٥، ٢٠٠٧م، ص٣١٨.

(٢) علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٩٩١م، ص٢١.

ثانياً: التعريف بالشاعر:

هو مصطفى محمد متولي سند، ولد عام (١٩٣٦م) بحي الركابية بأم درمان، شاعر سوداني وقاص بارز، يلقب برائد القصيدة المعاصرة، ويعرف في الأوساط الشعرية بمصطفى سند، وهو من شعراء مدرسة الغابة والصحراء(١).

"درس في أم درمان والخرطوم بحري والأُبيِّض، حاصل على بكالوريوس تجارة من شعبة العلوم البريدية، عمل بوزارة المواصلات في معاهد التدريب، وعمل بالانتداب في وزارة الخارجية لمدة أربعة أعوام، تفرغ للعمل الصحفي منذ ١٩٨٠م، وعمل مديرًا لتحرير جريدة الخليج اليوم بدولة قطر، ثم عاد إلى السودان وعمل بالصحافة اليومية، ثم أصبح رئيسًا لإدارة الهيئة القومية للثقافة والفنون، وعضوًا بالمجلس الوطني"(٢).

تفتقت شاعرية مصطفى سند منذ بواكير صباه حيث لم يتعد العاشرة من عمره، وفي مرحلة الدراسة المتوسطة، وتحديدًا في المدرسة الأميرية الوسطى بمدينة الأُبيّض "غرب السودان" ظهرت موهبته من خلال الأنشطة الأدبية، وقد حظي بالكثير من الجوائز الأولى في منافسات الأدب والشعر، وللأسرة دور كبير في ذلك، حيث كان والده شاعرًا، وله ديوان مخطوط بعنوان (ملذات الخلود)، وأيضًا استفاد من مكتبة

---

(١) هي حركة شعرية ثقافية تأسست في جامعة الخرطوم في أوائل الستينيات من القرن الماضي، وتعد من أبرز تيارات الحداثة الثقافية والأدبية في السودان، اهتمت بمسألة الهوية السودانية ورأت في مفهوم التمازج العربي الذي رمزت له بالصحراء والأفريقي الذي دلت عليه بالغابة خطابًا لها. كانت غايتها هي تكوين اتجاه في الأدب السوداني يدعو للبحث عن الكيان القومي والذاتية السودانية المتميزة؛ لمخاطبة مسألة الهوية السودانية.

(٢) قناة أنغام، حلقة في اليوتيوب بعنوان: سحر الكلام عن الشاعر مصطفى سند– اليوم الثاني عشر، ٨/ ٦/ ٢٠١٧م.

جارهم الشاعر الكبير (مصطفى الكُتُبي) التي تضم عيون الأدب وأمهات الكتب، وكان لهم منتدى شعري للسيدة (بت إسحاق) في ذات المدينة، يشارك فيه كبار الشعراء[١].

وقد بدأ بنشر أشعاره في الصحف، وكانت صحيفة الصراحة هي الصحيفة الأولى التي نشر فيها قصائده، ونشر أيضًا في صحيفة الأخبار التي كان يرأس تحريرها الأستاذ رحمي محمد سليمان قبل أن يجمعها في الدواوين، كما نشرت له العديد من القصائد في الصحف ولم تضمن في دواوينه، مثل صحيفة الإنقاذ الوطني[٢].

وللشاعر أحد عشر ديوانًا، هي: البحر القديم، ملامح من الوجه القديم، عودة البطريق البحري، أوراق من زمن المحنة، نقوش على ذاكرة الخوف، بيتنا في البحر، شفرة البحر الأخير، درجة القبول في الحب والحلول، رجعنا مع البادرات إلى الاستواء، أوراق من زمن المحنة، بيتنا في البحر، أما ديوان (تأملات ناعمة في زمن خشن) فقد أعاد طباعته إلى ديوان (رجعنا مع البادرات إلى الاستواء).

والشاعر لديه خمس وعشرون قصة قصيرة، ولكنها لم تجمع في مجموعات وإنما نشرت في الصحف، مثل قصة (عبدة الشمس) التي نشرت بصحيفة (الأيام)، وقصة (وحمل السيركي نفسه)، وقصة (فتش نفسك) [٣]، وقصة (كيو) كتبها بمدينة

---

(١) طاهر محمد علي، صديق مصطفى سند، صحفي سوداني، اشتغل في الصحافة السودانية نحو خمسة عشر عامًا، والآن يعمل منتجًا للأخبار بقناة ليبيا ٢١٨ نيوز في الأردن.

(٢) مصطفى سند حياته وتجربته الشعرية، واثق بابكر محمد، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص٢٩.

(٣) مصطفى سند حياته وتجربته الشعرية، واثق بابكر محمد، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص٢٩.

بورتسودان، وقدّم مع كمال شانتير[١] مجموعة قصصية بعنوان (هنا آخرون).[٢] كما كتب رواية واحدة بعنوان (الكسوف النهاري) ولكنها غير منشورة. [٣] وكتب العديد من المقالات في الصحف السودانية، في عموده الصحفي (مراجعات أدبية)، وكانت جميعها مصوبة نحو النقد الأدبي، ومنها: (الطيور المهاجرة: نشرت في صحيفة الأيام السودانية بتاريخ: ١٣ مايو، ١٩٨٥م)، و(الحال من بعضه: نشرت في صحيفة الأيام بتاريخ: ١٩ مايو، ١٩٨٥م).

وقدّم القصائد لكتاب الأغنية السودانية، ومن تلك القصائد: (شارع الصبر، وغلطان باعتذر، وغالي الحروف، وقصده أيه، وبريد الشوق، وأشواق السنين) وكذلك القصائد الوطنية:(أعياد الحصاد، وحكايتنا) وقدمها جميعها للملحن صلاح مصطفى، وأول قصيدة قدمها له ليلحنها هي قصيدة: شارع الصبر، ومما قاله فيها:[٤]

حبيب العمر بالدنيا ... يضيع فكيف ألقاهُ

حصاد الشوق في كفي ... ظلالٌ من بقاياهُ

أيخلف وعدهُ تِيهًا ... ويبعد خطوه عني

ويتركني على جمرٍ ... أقطر للأسى دمي

أُسائلُ عنه لا أدري ... وأعبر شارع الصبر

---

(١) كمال محمد شانتير المحامي، له عدد من البحوث القانونية، والمقالات والقصص والإنتاج الأدبي منشور في الصحف السودانية.

(٢) مقابلة شخصية مع عبد الله النجيب، أجراها الصحفي طاهر محمد علي في ١٨ إبريل، ٢٠٠١م.

(٣) أخبرني بذلك تلميذه عماد بابكر من خلال تواصلي معه عن طريق الواتساب.

(٤) قناة النيل الأزرق، حلقة في اليوتيوب بعنوان: مساء جديد- زول في الخاطر (الراحل مصطفى سند) - مع الفنان صلاح مصطفى، ٨/٢/ ٢٠١٩م.

وبذلك كانت هذه القصيدة أول قصيدة غنائية.

نال مصطفى سند العديد من الأوسمة والجوائز: كوسام العلم والفنون والآداب ١٩٨٠م، وجائزة الدولة الشعرية، وجائزة دار النشر –جامعة الخرطوم، وجائزة الشعر في مهرجان ولاية الخرطوم والثقافي الأول، درع التميز "مهرجان الشعر العربي" بيروت "الأرض لنا – القدس لنا".

توفي مصطفى سند في صبيحة الخامس والعشرين من شهر مايو سنة ثمانية وألفين بعد معاناة مع المرض بمدينة أبها بالمملكة العربية السعودية وبها دفن.

التناص التاريخي:

التناص التاريخي يمثل شكلًا من أشكال الحضور التراثي في النص الشعري الحديث، حيث يلجأ الشاعر إلى استحضار التاريخ بكل معطياته من شخصيات وأماكن وأحداث، ويمزجها بتجربته الإبداعية، وفقًا لما يقتضيه موقفه الفكري، وتجربته الجمالية، ورؤيته. فيكون توظيف التراث التاريخي لأسباب فكرية وواقعية وجمالية، وهو من باب التواصل الذي يقيمه الشاعر بين النصوص والعالم الخارجي. والتناص التاريخي هو "ذلك التناص النابع من تداخل نصوص تاريخية مختارة ومنتقاة مع النص الشعري المقروء، تبدو مناسبة ومنسجمة لدى المؤلف أو القارئ مع السياق الشعري الذي يرصده، وتؤدي غرضًا فكريًّا أو فنيًا أو كليهما معًا". (١)

وقد أدرك مصطفى سند ما لهذا الانفتاح على التاريخ من أهمية في إثراء شعره، وإرفاده بما يفيد. وتباينت طرائقه في هذا التناص، وانقسمت إلى ثلاثة أشكال:

---

(١) التناص (دراسة تطبيقية في شعر شعراء النقائض) جرير والفرزدق والأخطل، نبيل حسنين، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، ط١، ٢٠١٠م، ص٢٥٢.

الأول: التناص مع أماكن تاريخية:

نال المكان اهتمامًا ملحوظًا عند الشاعر، وتفاعل مع تاريخه ومكانته، وكان بذلك كغيره من شعراء العصر الحديث الذين "أعادوا صياغة الأماكن والعالم وفق رؤيا جديدة، اتخذت صورًا مثالية وإنسانية، وتجاوزوا بها المساحة الجغرافية المجردة للأماكن إلى كونها تشكيلًا روحيًا ووجدانيًا، يزخر بالحركة والحياة، فاستنطقوها ونقلوا أحاديثها، وتاريخها عبر أشعارهم، فكان ذلك تعويضًا روحيًا". [(١)] وبهذا فالمكان يُتخذ منطلقًا؛ للتعبير عما في ذات الشاعر، فهو "عنصر ضاغط على الذات، مصيغ لها، وهذه الخبرة تتشرب كل ما يعطيه هذا المحيط، لتعيد صياغته، وتشكيله من جديد وفقا لمنطلقاتها، في شكل حالات ذهنية، وأبعاد تصورية نفسية، عبر الصورة واللغة الشعريتين"[(٢)].

فالمكان كـ "القاعدة المادية التي ينهض عليها النص ويستوعبها حدثا وشخصية..." [(٣)]، وهو يمثل حضورًا واسعًا عند الشاعر، باستحضاره لبعض الأماكن المقدسة عند المسلمين، وبعض الأماكن التي فقدها العرب واستولى عليها الأعداء، كما أنه لم يُغْفِل وطنه وأصله السودان؛ إذ أسهم بذكره لبعض الأماكن التي أسهمت في تاريخه.

---

(١) آفاق الرؤيا الشعرية، إبراهيم نمر موسى، وزارة الثقافة الفلسطينية، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٥م، د. ط، ص٢٣٩. (نقلاً عن: استدعاء المكان التاريخي في شعر الخطراوي، خالد الدعجاني، الأكاديمية العربية للعلوم الإنسانية والتطبيقية، ٢٠١٨م، العدد ٢).

(٢) دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، قادة عقاق، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ٢٠٠١م، ص٣٠٨.

(٣) فاعلية الذاكرة في الكتابة الشعرية، خليل شكري هياس، منتديات ستار تايمز، ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٨م، ص١٧٧.

فمن المدن العربية التي ارتبط بها الشاعر لمكانتها الدينية في نفوس المسلمين (القدس)، حيث نجده يتحسر عليها في قوله في قصيدة (أوراق من زمن المحنة):

كانت القدسُ كتابًا عربيَّ الحرفِ، فضُّوا ختمهُ الباذخ في الليل

وعرَّوا وجهه الطاهر للريح ونيران الخيانهْ..

وانشغلنا عنه.. كنا سادة الشعر الذي يبكي

على رسم التواريخ القديمهْ

صارت الحكمة فينا قدر الموتى

وصرنا حين يصحو الليل نصحو ونُغني لجراحات الهزيمهْ

نملأُ الصفحة بالنعي المُوشَّى، وبأشعار الهوى الغلَّاب،

نحكي لعنة الذاتِ ونستعدي حلاقيم المنابرْ

فلماذا أَيُّها الموت...؟

لماذا عرّت الشمس الصدى النائح في صمت المقابرْ؟ (١)

استدعى الشاعر مدينة القدس بوصفها مكانًا تاريخيًا، وتحدث عن ماضيها حينما كانت عربية، ويرمز لها بلفظ الكتاب عربي الحرف؛ لأنه يراها مقدسة كالكتاب المقدس بالنسبة للمسلمين، والكتاب شيء قيم وثمين مما يعكس قيمة القدس وأهميتها الإسلامية(٢)، كما أن استعمال لفظ الكتاب يشمل معاني مثل الحكمة

(١) أوراق من زمن المحنة، مصطفى سند، دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم- السودان، ط٢، ١٩٩٤م ص٨٠.

(٢) لا يخفى علينا ما للقدس من مكانة تاريخية عظيمة؛ إذ فيها المسجد الأقصى أولى القبلتين، وإليه مسرى النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – ومنه معراجه، وأحد المساجد الثلاثة التي تشد الرحال إليها، وهي أرض المحشر والمنشر، ومبعث الأنبياء، وإليها هجرة إبراهيم عليه ←←←

والمعرفة والعلم، فالشاعر أراد به أن القدس مصدر حكمة ومعرفة للمسلمين، ولكن الأعداء فتحوا ختمه العظيم وجردوا وجهه الطاهر فذهبت عروبته مع الريح وأحرقتها نيران الخيانة، وهنا يرمز إلى أن الأعداء قد انتهكوا حرمة القدس، وقاموا فيها بأعمال تخريبية وتدميرية، والشاعر ومن معه انشغلوا عنها بعد أن كانوا سادة الشعر الذي يبكي ذلك التاريخ العريق، وصارت الحكمة لديهم كالموتى، ولا تصحو مشاعرهم الحزينة إلا في الليل، فيملؤون الصفحات بالنعي والحزن بدلًا من الشجاعة والأمل، ويتساءل بلهفة عن سبب تدمير القدس وتعريتها من مجدها حتى في وسط النهار.

والملاحظ أن الضمائر تعود على غائب (فضُّوا- عرَّوا) وهذا يدل على شدة غضب الشاعر بعدم ذكره للأعداء صراحة، واللوم هنا ليس للأعداء فقط، وإنما أيضًا للشعراء الذين انشغلوا عن الدفاع عن القدس (انشغلنا- صرنا)، وللموت، وللشمس التي كشفت عن كثرة الموتى في المقابر.

ولا شك أن استدعاء النص السابق (مدينة القدس) في النص اللاحق يحمل دلالات تبرز المفارقة بين ماضي القدس المجيد (الباذخ)، وحاضرها المتخاذل الممزق الذي جنى عليه الأعداء.

ويتجلى التناص مع التاريخ باستحضار الشاعر لمدينة (بغداد) في قصيدته (مِرْبَدية) حيث يقول:

واه لبغداد باتت وهي قابضة

جمر العروبة في الأشكال والصورِ

→→→

السلام، وعاش على أرضها الكثير من الرسل، ودفن فيها عدد كبير من الصحابة والتابعين، وبارك الله ما فيها من الأشجار والأنهار. ينظر: مكانة القدس في الإسلام، محمد أبو ليلة، إسلام أون لاين.

ليت العروبة يا بغداد قد خلصت

للمنشدين.. وللتاريخ.. والسيرِ

إلى قوله:

جاء الزمان الذي كنا نحاذره

يختار بغداد بين النار والشررِ

يعدو ويهتف يا بغداد يا وطنًا

للكاسرين حدود الخوف والحذرِ

للطالعين كورد النيل.. تذكرة

رغم الحصار ورغم الليل والخطرِ

إن البطولة يا شماء نابضة

في الروح منك وفي الخرطوم فانتصري

فرحلة الحب جادت في مواسمها

كل الرياح الجنوبيات بالمطر [١]

بغداد في هذه الأبيات هي النص المعطى (التراثي)، وهذا النص هو النص المنتج المتناص معها، وفيه يتأسف الشاعر لحال بغداد [٢] التي أصبحت تحت قبضة

---

(١) شفرة البحر الأخير، مصطفى سند، دار الأشقاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٠م، ص٩٦، ٩٧.

(٢) بغداد عاصمة العراق، بناها الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور، واتخذها عاصمة للدولة العباسية، كانت أهم مراكز العلم، وأكبر مدينة في العالم في فترة حكم بني العباس حيث بلغ عدد سكانها أكثر من مليون نسمة، وصلت لذروتها في عصر هارون الرشيد وفقدت مكانتها عام (٦٥٦هـ) عندما غزاها المغول.

الاحتلال على الرغم من صمودها ومحافظتها على عروبتها، ويتمنى لو أن العروبة انتصرت وأخلصت للمؤرخين ورواة القصص البطولية. والزمن الذي كانوا يخشونه أن يختار بغداد بين النار والشرر قد أتى، وترمز لفظة (النار) إلى الحرب والدمار والاحتلال، بينما لفظة (الشرر) ترمز إلى الفتنة والاضطرابات الداخلية، ولكن انتهى زمن الخوف والحذر؛ وجاء زمن آخر مسرعًا ينادي بغداد وطن الشعب القوي الشجاع الكاسر للخوف والحذر، الذي يخرج من الحصار والخطر كما يطلع ورد النيل من تحت الماء ويطفو فوقه، وهذا النداء من الشاعر لبغداد، وهذه الإشادة بشعبها؛ لبيان أن البطولة موجودة في روح الشعب، وعليها أن تحقق النصر والتمكين. هذا هو المعنى الظاهر للأبيات، ولكن الشاعر يستعين بهذا التناص المُقنَّع؛ ليبتدع دلالات أخرى جديدة ضمن صورة رمزية تغدو فيها (بغداد) رمزًا يشير بدلالته الخفية إلى محبوبة الشاعر، ويؤكد ذلك مناجاته لها في مطلع القصيدة: (للقادمين عيون الريح فاستتري * فإن عَرْفك يغنيني عن النظر** قد جئت أحمل أوراق الهوى كتبًا * وأحمل النيل ذا الجنات والثمر)، ووصفه لرحلته إليها عبر البحر، ووصفه لخُطَاه (غَلَتْ خطاي وما فلَّت قوادمها)، و(نهر النيل) الذي يظهر في الأبيات وهو (مستهام، يهتاج، يغلي شوقًا، له عيون العاشق) إشارة خفية إلى ذات الشاعر الذي يختبئ خلف هذا القناع، وكثرة الألفاظ الدالة على الحب والعشق (الهوى، مستهام، العاشق، يلثمها عشقًا، ربيع الحب، هل تعشقون؟ رحلة الحب...) وقوله بعد الالتقاء بها: (يا عين قري ويا أشواقي انحسري * معشوقتي ملء حضني، مرتقى بصري)، وتغزل الشاعر بالمحبوبة في قوله: (كأن أعينها والغيم يلثمها * عشقًا.. نجوم زهت في موكب القمر). والشاعر في هذه المقطوعة المتناص فيها مع المكان التاريخي بغداد يُبدي تلهفه وحسرته على فقده لمحبوبته التي قبضت على جمر الصبر من أجل استمرار العلاقة بينهما إلا أنه لم يُخْلِص لها – على الرغم من مناضلته – ولم يتمكن من الزواج بها، ولم يبقَ له منها إلا الذكرى المستعرة في فؤاده (والعائدون من الذكرى حقائبهم* بوح

الرمال وهمس الريح في الشجر) (عشق قديم العهد مستعر) ورحلته معها كانت جميلة مليئة بالفرح والسعادة، كجمال الأرض بعد المطر وكالفرح الذي يملأ القلوب عند نزوله. ورمز الشاعر للمحبوبة بمدينة بغداد ربما لأنها من بغداد (بغداد تفتح بابًا دونه سفر) وبدلالة ذكره لمدينة الخرطوم التي تشير إلى أصل الشاعر الذي يختلف عن أصلها، وقد يكون سبب ذلك ضياع محبوبة الشاعر منه كما ضاعت بغداد من أهلها، ورمزه لها بالمكان؛ لأنها له بمثابة الوطن.

واختيار الشاعر للقصيدة العمودية/ التناظرية – على الرغم من أنها قليلة ومعدودة في دواوينه – كان رغبة منه في التعبير عن هذا الموضوع بشكل مختلف؛ إذ يريد أن يعطي شعورًا بالترابط والتنظيم كما يفعل ذلك التنسيق العمودي، ويثبت أن حب الشاعر القديم ما زال مستمرًا كاستمرار القصيدة العمودية، ولم تؤثر فيه التجارب الحديثة.

ويتجلى التناص مع التاريخ باستحضار الشاعر لمدينة (سراييفو)[١] في (ضفائرها القتيلة) التي يقول فيها:

قلبي فداكِ أيا سراييفو البهيَّةُ

حين كنتِ مع إئتلاقِ[٢] الشمس والمطر الجميلِ

---

(١) سراييفو عاصمة البوسنة والهرسك، تم حصارها لمدة طويلة من قِبل قوات جيش يوغوسلافيا الشعبي بالاشتراك مع جيش جمهورية صرب البوسنة، واستمر الحصار من ٥ إبريل ١٩٩٢م إلى ٢٩ فبراير ١٩٩٦م، وكان ذلك خلال حرب البوسنة حينما أعلنت الحكومة البوسنية الاستقلال عن يوغوسلافيا، فأرادت القوتان الأخريان القضاء على الدولة الوليدة للبوسنة والهرسك وقيام – بدلاً منها – الجمهورية الصربية للبوسنة والهرسك، ويقدر أن عدد الضحايا خلال الحصار يزيد عن اثني عشر ألفا وعدد الجرحى يزيد عن خمسة آلاف، نسبة المدنيين من بينهم ٨٥%.

(٢) كتبت كلمة ائتلاق في الديوان بهمزة قطع، والصواب أنها تكتب بهمزة وصل.

تُدندنين لعاشقيكِ وتحملينَ خُطى بنيكِ الواثبينَ

كما الفراشاتِ الرشيقةِ والشموع البيضِ

في بطرِ الوداعةِ والرَّفاهِ الناعمِ المبثوثِ

من قلبِ الرضا والحب والذهبِ المطرَّزِ

في قوام السُّنبلَهْ (١)

حضر النص الغائب – في هذا النموذج – متمثلًا في مدينة (سراييفو البهية) التي يخاطبها الشاعر وكأنها تستمع إليه، ويفتديها بقلبه، وقد تمثلت له في هيئة أنثى بارعة الجمال تعيش في نعيم وسكينة، تحيط بها الأجواء الرائعة التي تجمع بين لمعان الشمس ونزول المطر، تُغَنِّي لِعُشَّاقها، وتحمل خطوات بنيها الذين يتنقلون في خفة وسعادة كما الفراشات، وفي نقاء كالشموع البيضاء، وهي وهم ينعمون بالهدوء والسكينة وسعة الرزق، وقلوبهم راضية مملوءة بالحب، يكسوهم القوام الأبيض الممزوج بلون الذهب، ويقصد بذلك اللون جمال الخِلْقة.

ويقول الشاعر في مقطع آخر من هذه القصيدة:

قلبي فداكِ.. تركتُه يومًا هناكَ على الرصيفِ المستهامِ

يذوبُ في الألقِ المورَّدِ والملاحةِ قبل أن يأتي الجحيمُ

إلى ثراكِ

وتستفيضُ مواردُ الموتِ الكئيبِ وتستبدُّ المهزلَهْ...

قلبي فداكِ أيا سراييفو التي كانت عروسًا

---

(١) بيتنا في البحر، مصطفى سند، دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم– السودان، ط١، ١٩٩٤م، ص٢٦.

في عيونِ الزهوِ والدهرِ المسالم والحصادِ البكرِ

والفرحِ المجاهدِ

ثم صارتْ أرملَهْ... (١)

ويفتديها الشاعر – مرة أخرى – بقلبه الذي تركه فيها على الرصيف؛ لأنه يذوب في جمالها قبل أن يتلاشى بسبب الحرب والدمار الذي أثر فيها بشكل كبير، حيث انتشر الموت المحزن وتغلبت عليها المهزلة ولم تقدر على ضبطها، ويتذكر الشاعر كيف كانت في الماضي عروسًا جميلة في كامل زينتها، تمثل السلام والرخاء والفرح ثم أصبحت بعد الحرب أرملة حزينة خالية من الزينة.

من خلال استحضار الشاعر لسراييفو تبين عشقه للماضي الذي جاء مقترنًا بالدلالات الإيجابية (البهاء، الجمال، الغناء، العشق، الفراشات، الشموع البيضاء، الرفاه الناعم، الرضا، الحب) فقد أضفى عليه ملامح السعادة والهناء، وفي المقابل سيطرت الدلالات السلبية على الزمن الحاضر (الجحيم، الموت الكئيب، المهزلة، الأرملة)؛ فهو زمن الفقد والحزن.

وتكرار الشاعر لجملة (قلبي فداكِ) يحمل أبعادًا ودلالات مختلفة تُبرز حجم المعاناة في قلبه، ورغبته في الفداء، وعجزه عن استعادة الماضي. فغرض الشاعر من توظيف النص الغائب (سراييفو) في النص الحاضر (القصيدة) هو المقارنة بين ماضيه السعيد وبين حاضره المحزن.

ولبلد الشاعر النصيب الأكبر من هذا التناص بذكره لبعض مدنه التي لها مكانة مهمة في تاريخه كـ (الخرطوم، توريت، قيسان، الكُرْمُك)، ومما قاله في الخرطوم في قصيدة (والخرطوم نائمة على صبر الخصاصة):

---

(١) بيتنا في البحر، مصطفى سند، ص٢٦، ٢٧.

كم جَمَّلت بك وجهها الأيام

والخرطوم نائمة على صبر الخصاصة

وانكسارات النفوس..

كم أعلنتك عقيد أسراها

تجر غرور عينيها

وتحرق في مكاتبها دواوين الكلام.

يا وجه كن للماء تذكرة

وكن للسرو مروحة

وكن لمحاضن الرمل الحزين بنفسجا يهمي

فيحتشد الكلام..

هم يزرعون الطيب

بين النيل والأشياء

والخرطوم ساقيتي

ومحرقتي

وبيتي.. (١)

استثمر الشاعر التناص مع البعد المكاني (الخرطوم)؛ ليجسد للقارئ مشاعره تجاهه، ومكانته في نفسه؛ فالشاعر يتحاور مع ذاته وكأن هناك شخصًا يخاطبه، ويقول: إن الخرطوم كانت تهفو لوجه صباحي صغير يخلصها مما تعاني، والأيام

(١) شفرة البحر الأخير، مصطفى سند، ص٨٢، ٨٣.

أثبتت مواقفك الجميلة معها حينما كانت نائمة صابرة تعاني هي وأهلها من الفقر والمجاعة [١] وانكسارات النفوس، فمفردة (نائمة) ماهي إلا رمز للسكون والاطمئنان، ومفردة (الخصاصة) رمز للانكسار والمعاناة الشديدة، بمعنى أنها مطمئنة بأن هناك من سيُخلصها مما تعانيه؛ فجعلتك عقيدًا لأسراها، وجذبتَ كبريائها وعدم شكواها، وأحرقتَ الكلام الكثير الذي تظاهرتْ فيه بقوتها وصبرها، وانتشلتها من حزنها حتى ظهر ذلك الوجه الذي ترنو إليه، ولفظة (وجه) توحي بالفرح. ويخاطب ذلك الوجه ويأمره أن يأتي؛ ليسمح بمرور ماء النيل، ويجلب الهواء لأشجار السرو، ويُزيِّن الرمال الحزينة بالبنفسج؛ لأن ألوانه مختلفة: أبيض وأصفر وأزرق، ورائحته عَطِرة، وتكرار فعل الأمر (كُن) للتحفيز والدعوة للكتابة عنها وإظهار مأساتها. ويقول: إن الشعراء الآخرين يكتبون عن النيل والأشياء الطيبة، أما هو فالخرطوم بالنسبة له هي ساقيته ومحرقته وبيته: أي مصدر إرواء لشعره، ومكان إحراق همومه، ومنزله، مما يعكس تعلقه بها وحبه لها.

فالنص السابق (الخرطوم) حينما اختارت الشاعر ليكتب عنها أبرزت إبداعه وتألقه؛ فكان هذا الاستدعاء لبيان أثر النص السابق على النص اللاحق:

وأطير.. أبدع

أشغل الدنيا

---

(١) شهدت السودان خلال الثمانينيات وتحديدًا في عامي ١٩٨٤ و١٩٨٥م واحدة من أسوأ المجاعات في العالم، التي نجمت عن مزيج من الحرب الأهلية والجفاف، ونتجت عنها خسائر بشرية ضخمة، كما تأثرت الثروة الحيوانية، ولم يتحسن الوضع كثيرًا وحدثت مجاعة أخرى عام ١٩٩٨م، بعد تعرض البلاد لموجة جفاف؛ بسبب قلة الأمطار، وأيضًا بسبب تأثير الفيضانات الموسمية على المحاصيل. (ينظر: مقال المجاعة تطرق باب السودان مع تردي أحواله وتفاقم أزماته، منى عبد الفتاح، الخميس ١يوليو ٢٠٢١م).

وأطلق في فضاء الكون صاعقتي

وأوراقي

وأغنيتي

وصوتي.. (١)

ويستحضر مدينة (توريت) في قصيدة (أحزان قديمة) باستخدامه لصور قوية مؤلمة تنقل للقارئ تأثر الشاعر الشديد بمأساتها؛ إذ يقول:

<<تُوريت>> تفتح في مطار الليل صندوقًا من اللحم الجريح

<<تُوريت> >ترفع شارة البابا ولافتة المسيح

وتدقّ بالكفين شرفة غيمها الصيفي

تنبح والأسى

يلج الكهوف السود يرسم كلَّ واجهةٍ ضريح

مليون قلب في بحار الدمع طافيةً تصيح (٢)

وظف الشاعر في النص الحاضر المدينة السودانية (توريت) التي منها بدأت شرارة الحرب في جنوب السودان؛ فهي التي فتحت صندوق اللحم الجريح في الليل، عندما أُعطيت التعليمات بالسفر منها ومن الجنوب إلى الخرطوم للاشتراك في الاحتفالات بجلاء القوات البريطانية واستقلال السودان، ولكن أعضاء قوة الدفاع تمردوا وثاروا واغتالوا كل من هو ليس جنوبيًا، وبلغت جملة الضحايا نحو مئة

(١) شفرة البحر الأخير، مصطفى سند، ص٨٣.

(٢) البحر القديم، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم- السودان، د. ط، ٢٠٠٥م، ص١٩.

وعشرين شماليًا، وأربعين أوروبيًا. [١] ورفعت فيها شارة البابا رئيس الكنيسة الكاثوليكية، ولافتة المسيح؛ لكثرة من يعتنق النصرانية، وأخذت تدق بالكفين على شرفة غيمها الصيفي وهنا إشارة إلى الفرح والاستمتاع بما فعلته، وإظهار قوتها وسيطرتها على الأوضاع، وبينما هي فرحة وتنبح فإن الأسى يدخل حتى الكهوف السود أي المنازل المظلمة الكئيبة ويحول كل بيت إلى قبر، والقلوب تصيح من بشاعة تلك الأفعال وتبكي بدمع غزير كالبحر في كثرته. وكثرة الأفعال المضارعة (تفتح، ترفع، تدق، تنبح، يلج، تصيح) تظهر الحركة والانفعال؛ لأن ذات الشاعر تعيش صراعًا، وتبحث عن الاستقرار والطمأنينة. ويبدو أن ذكرى عمل الشاعر في توريت ومكوثه بها فتحت في ذاكرته أمورًا خفية وسرية – كما ترمز لفظة (صندوق) – من الأسى والحزن، والألم النفسي والجسدي الذي توحي به لفظة (اللحم الجريح)، وشعوره بالعزلة والغربة النفسية والخوف من المجهول في تلك المدينة (الكهوف السود).

ويستدعي قيسان والكُرْمُك بوصفه لحالهما بعد الأحداث التي عاشتاها بقوله في قصيدة (غنائية السائر على شفق الأسوار):

في غبش الليل الأبكم لم نُبصر غير الأمواتْ

"قيسان" انكسرتْ واقفةً

وتدلَّت أَفرعُها في الليل الطالع من جوف الغاباتْ

و"الكُرْمُكُ" تلبس قمصان الشمس وتعبر عيناها

ظلَّ الأجراسْ

---

(١) ينظر مقال بعنوان: ١٨ أغسطس ١٩٥٥م والذكرى الـ ٥٨ على حوادث توريت، بكري الصائغ، صحيفة الراكوبة، ١٧ أغسطس ٢٠١٣م.

تتحسَّسُ أوراق الخوف الزاحفِ

والأقدامَ المرتعشات وراء النهر الهارب في الصحراءْ [١]

استحضر الشاعر مدينتي (قيسان والكرمك) متحدثًا عن حالهما بقوله: في ظلمة آخر الليل الهادئ لم نُبصر غير الأموات، وذلك بعد انتهاء الحرب أو التمرد الذي استمر إلى ما قبيل الفجر وكانت نهايته انكسار محلية قيسان بعد أن كانت واقفة كالشجرة الكبيرة الصلبة المقاومة لظروف الحياة، مما يدل على الذهول والحيرة من ذلك المصير، وتدلّي أفرعها من وسط الغابات، وهنا إيحاء بالحياة والجمال الذي كانت تنعم به؛ إذ كانت تشتهر ببساتينها الخضراء، وأشجار المانجو التي تغطي كل أحياء المحلية، وهذا يؤكد الوحشة والدمار الذي خلفته تلك الحرب. أما الكُرمك فقد بدأت فيها الحرب عند طلوع الشمس وظهور النور، وتشغيل الأجراس للإنذار بوقوعها بعد أن كانت تنعم بالجمال والضوء والدفء (قمصان الشمس)؛ فشعر الناس بالخوف الذي بدأ يزحف إلى قلوبهم، وترتعش أقدامهم ومنهم من هرب إلى الصحراء أملًا في النجاة؛ فالشاعر يصور الخوف على أنه شيء مادي له كيان ووجود، مما يوحي بعدم الاستقرار وعدم الأمان.

والشاعر بهذا الاستحضار يعبر عن الحنين إلى ماضيه متمثلًا بماضي تلك المدن التي كانت تنعم بالهدوء والنعيم والأجواء الروحانية، ولكن ذلك النعيم أصبح كالنهر الهارب في الصحراء دليلًا على الضياع واليأس وعدم وضوح الهدف أو الغاية.

هذه الأماكن التي تناص معها الشاعر (الخرطوم، توريت، الكرمك، قيسان) تعزز لديه الهوية والانتماء للوطن؛ فما تلك الأماكن وما فيها من صور الطبيعة إلا جزء من كل الحيز المكاني المكون لفضاء الوطن (السودان)، والتي أسهمت بدورها في تكوين تاريخه.

---

(١) أوراق من زمن المحنة، مصطفى سند، ص٣٥.

الثاني: التناص مع شخصيات تاريخية:

أدرك مصطفى سند أهمية توظيف الشخصية التاريخية في شعره؛ واستدعاء المواقف التي خاضتها؛ إذ إنها "وسيلة إيحاء وتعبير في يد الشاعر يعبر من خلالها عن رؤياه المعاصرة" (١)، وعن الموقف الذي يريد أن يقدمه للمتلقين، وينهض بالواقع المعاصر الذي يريد التعبير عنه.

واستلهام الشخصيات التاريخية يحقق مزيدًا من الدعم للنص، ويضيء التجربة المعاصرة، كون الشخصيات همزة وصل بين الماضي والحاضر.

و"استدعاء الشخصيات بالنسبة للشاعر ليس مجرد ذكر للشخصية أو الإخبار عنها فحسب، بل المعرفة الواعية بملامح تلك الشخصيات وأبعادها الدلالية ومن ثم المقابلة بين تلك الملامح والقضايا التي يعيشها الشاعر في واقعه ثم التعبير عن هذا الواقع من خلال الشخصية المستدعاة بطرق تعبيرية مختلفة تبتعد كثيرًا عن مجرد ذكر الشخصية، أو سرد أحداثها، كما وردت في كتب التاريخ والتراث"(٢).

وتتمثل تلك الشخصيات في بعض الخلفاء والحكام الذين شاركوا في إضاءة التاريخ العربي بما حققوه من انتصارات وأمجاد، وبعض الأبطال الذين شاركوا في الغزوات الإسلامية، ووقفوا بشجاعة أمام الظلم والكفر، وبعض الشخصيات التي تمثل الطغيان والاستبداد.

---

(١) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، ١٤١٤هـ =١٩٩٧م، ص١٣.

(٢) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر السعودي من عام ١٣٥١هـ إلى نهاية ١٤٢٦هـ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، إعداد: عبد الله خليفة السويكت، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٩هـ، ص٣.

ومن الشخصيات التاريخية التي استدعاها الشاعر: الصحابي عمار بن ياسر[١] – رضي الله عنه – في قصيدة (الجراحات العظيمة):

كُنَّا على نَزَقِ احتضارِكَ لا نرى إلا احتضاركَ

أيُّها المنفيُّ من ظمأ الرياحِ الصانعاتِ الغيثَ

– يا حبيِّ – إلى ظمأ السحابهْ

أمجاهدٌ من آخر الأكوانِ أنتَ..؟

أم ابتدأتَ مسيرةَ الألمِ المقطَّرِ في خُطاك

مع المناسيبِ البخيلهْ..؟

أم أنت عمارُ بن ياسر..؟

أم جنون العشقِ أشعلَ في دماكَ هوى المواعيدِ العليلهْ..؟ [٢]

الشاعر ومن حوله كانوا ينتظرون الموت المحتوم للشخص الذي يتحدث عنه، ولا يرون سوى مشهد احتضاره، ويُنادي الشاعر ذلك الشخص بالمنفي من حيث يأتي

---

(١) عمار بن ياسر بن عمار بن مالك ، أمه سمية بنت خياط أول شهيدة في الإسلام، أسلم عمار قديمًا ، وكان من المستضعفين الذين يُعذبون بمكة؛ ليرجعوا عن دينهم، لكنه كان صابرًا، أحرقه المشركون بالنار وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يدعو له بأن تكون النار عليه بردًا وسلامًا كما كانت على إبراهيم، شهد بدرًا وشهد أحدًا والمشاهد كلها مع رسول الله – عليه الصلاة والسلام – هاجر مع المؤمنين إلى المدينة المنورة، وكان صاحب الاقتراح ببناء مسجد قباء أول مسجد في الإسلام، شارك في حروب الردة وكان يقاتل فيها أشد القتال، وقُتِلَ بموقعة صفين مع علي بن أبي طالب – رضي الله عنهم – ودُفن بصفين سنة سبع وثلاثين للهجرة، وعمره ثلاث وتسعون سنة. (صفة الصفوة، جمال الدين ابن الجوزي، تحقيق: خالد طرطوسي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، د. ط، ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م).

(٢) درجة القبول في الحب والحلول، مصطفى سند، ص٢٣، ٢٤.

المطر إلى حيث يكون هناك جفاف- ويرمز هنا إلى مشاعر الفقد والعزلة – ويتساءل الشاعر مُوجِّهًا سؤاله إليه عما إذا كان مُقاتلًا يأتي من آخر العالم، أو أن معاناته قد بدأت بسبب تجاربه مع الأشخاص البخيلة قليلة العطاء، أم أنه عمار بن ياسر الذي صبر على الأذى والتعذيب وتمسك بإسلامه، أم أنه متيم بالحب الذي سبب له الألم والمعاناة بسبب تأخر المواعيد وعدم وصولها في وقتها المحدد.

يحضر عمار بن ياسر هنا دون ذكر التفاصيل الشخصية المرتبطة بقصته، وحياته التاريخية المعروفة، ويقارن الشاعر بطل قصيدته عبد الوهاب حسن الخليفة بعمار الذي يرمز للشجاعة وقوة الإيمان والتضحية ومقاومة الظلم والطغيان، واستحضاره كرمز يشير إلى الكثير من الأحداث التاريخية المرتبطة به؛ وذكره مدعاة لإيقاظ القلوب التي سكنها الخوف والاغتراب والحزن، حيث أصبح عمار مثالًا حيًّا للمسلم الثابت على الحق الصامد في وجه المحن.

ويظهر استدعاء الشخصيات التاريخية من خلال عنونة القصائد "فإبراز اسم الشخصية المستدعاة في عنوان القصيدة يؤثر في أفق التوقع عند القارئ، ويجعل العنوان بمنزلة مفتاح تأويلي يقوم بتعيين طبيعة النص وتشكيل بؤرته الدلالية" [١]؛ ففي قصيدة (شجرة الدر) [٢] يقول الشاعر:

---

(١) التناص الأسطوري في شعر محمود درويش، مفيد نجم، مجلة نزوى، العدد٥٩، ٢٠٠٩م، ص١١٥.

(٢) هي عصمة الدين الملقبة بشجرة الدر، جارية اشتراها الصالح نجم الدين أيوب قبل أن يكون سلطانًا، وأعتقها فيما بعد وتزوجها، ساهمت في حكم مصر خلال فترة حكم زوجها – حينما يكون خارج مصر – وبعد وفاته، تتسم بالشجاعة والقوة والجرأة، ولها العديد من الإنجازات في تاريخ الدولة المصرية، ومن أهمها: صد الحملة الصليبية السابعة، وحكم مصر بعد وفاة الصالح أيوب وابنه توران شاه، وبذلك تكون أول امرأة مسلمة ذات سيادة في تاريخ الدولة ←←←

مَنْ زوبَعَ القرارْ؟

في صدرِها وشقَّ للمرآةِ نهرَ الشمسِ

قال ما صداقُ شهرها الأخير، ما نهاية الطريقْ

في عين مَنْ يموت تحت رايةِ النهار؟

يا قَبرهَا الأنيقَ حدِّثِ المساءَ كلَّ ليلةٍ

وحدِّثِ النجوم

عن حانها المصندلِ الرفوفِ، عن نبيذها العتيقْ [1]

بدأ الشاعر استحضاره لشجرة الدر ببعض الأسئلة عنها بـــ(من) و (ما) الاستفهامية، من الذي هَيَّج القرار في صدرها؟ لماذا عواطفها مضطربة متقلبة؟! ربما يقصد به قرار تنازلها عن الحكم لزوجها عز الدين أيبك، واستخدم الشاعر صورة المرآة التي تعكس نهر الشمس للتعبير عن الجمال والإشراق الذي يأتي من داخلها حتى في أصعب الظروف التي عاشتها بعد وفاة زوجها الملك الصالح أيوب، ويتساءل عن صداق شهرها الأخير الذي قضته في حكمها لمصر، ويشير إلى الدعم والعون الذي سيمنح لها نظيرًا لجهودها الإيجابية في الحكم، ولكن نهايتها كانت بالموت

→→→

المصرية، وقد استمر حكمها لمصر لمدة ثمانين يومًا، وقامت بتأسيس دولة المماليك بزواجها من عز الدين أيبك الذي تنازلت له بالسلطة وتوجته سلطانًا. (مقال بعنوان: شجرة الدر سلطانة المماليك ٦، راغب السرجاني، قصة السلام، ٢٧/ ٦/ ٢٠١٦م).

(١) ملامح من الوجه القديم، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم- السودان، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٨.

مقتولة في وضح النهار [١]. ويخاطب الشاعر قبرها الأنيق ويطلب منه أن يحدث الليل والنجوم عن حانها المصندل الرفوف (المكان الذي تجتمع فيه بحاشيتها ويتبادلون الأفكار والحوارات وكل ما يخص البلاد وشؤونها)، وعن النبيذ العتيق الذي يمثل النضج والحكمة والخبرة التي اكتسبتها على مر السنين، وهذه الرموز التي استخدمها الشاعر تشير إلى مكانتها التاريخية. واستعارة الشاعر لهذا الحدث من حياة الشخصية يؤكد أن بعض القرارات الخاطئة، والتي يتبع فيها المرء عواطفه، قد تُؤثِّر عليه وتنهي حياته، ولن يشفع له ماضيه المجيد.

وتناص الشاعر مع هذه الشخصية التاريخية قد أثرى نصه، وزاد الصور غزارة ومعنى، وأضفى للنص القوة والتماسك.

واستحضر مصطفى سند شخصية (هارون الرشيد) في قصيدة (الاستواء يلفني ما زال يبتدع الرنيم) حيث يقول:

فاسترشدِ الصّبواتِ وأترِكْ [٢] حرفَكَ الموزونَ

يهمسُ دندناتِ العشقِ وأحلُمْ [٣]

أيّها الغافي على سُررِ الرَّشيدْ..

بمدائنِ الفُرهيدِ.. والزمنِ الذي برقتْ دوائرُ عِزِّهِ الصوفيّ

تنسجُ بردةَ المعنى وتفترعُ النشيدْ.. [٤]

---

(١) أمرت زوجة عز الدين أيبك الأولى جواريها أن تُقتل شجرة الدر ضربًا بالقباقيب، بعد أن دبرت مؤامرة لقتل زوجها الملك عز الدين أيبك.

(٢) الصواب أن الفعل يكتب بهمزة وصل (اترك).

(٣) الصواب أن الفعل يكتب بهمزة وصل (احلم).

(٤) لك الحب، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم- السودان، ط١، ٢٠٠٩م، ص٥٦.

وظف سند الشخصية التاريخية (هارون الرشيد) في سياق مخاطبته لشاعر ما، كان يملأ شعره بقصص النضال وأحداثه، مما لا فائدة فيه؛ لأن المجاهد والمناضل والشهيد صامتون، ويأمره مصطفى سند أن يطلب النصح والهداية من الصبوات – الشباب أو الفتيات؛ للاستفادة من حيوية الشباب وطاقتهم وتجاربهم الجديدة، ويترك الأشعار الموزونة تعكس النغمات الدافئة الرقيقة المرتبطة بالحب والعشق، ويطالبه أن يعيش في الخيال والأحلام وهو غافٍ على سرر الرشيد، وسند لا يقصد سرر الرشيد بحد ذاتها، وإنما يرمز هنا إلى الدعة والنعيم الذي يعيش فيه ذلك الشخص، الذي يحلم بمدائن الفرهيد، وهي على الأرجح مدينة خيالية تمثل الجمال والرومانسية، ويأمره بالحديث عن الزمن الذي كان يلمع فيه الصوفية بعز وشرف، وتُنسج فيه الأشعار والأناشيد التي تحمل معاني عميقة وأفكارًا متنوعة.

واستحضار الشاعر لشخصية هارون الرشيد يُجسد الرخاء والأمن والخير في زمنه، وكثرة الجواري والغِناء والترف الذي امتاز به عصره [1]، وهو يدعو شعراء العصر الحديث بأن ينوعوا في موضوعات شعرهم، وأن يكتبوا عن نعيم الحياة وما فيها من جمال وحب، وأن يعيشوا وكأنهم في زمن الرشيد.

---

(١) أبو جعفر هارون بن محمد المهدي (١٤٨هـ –١٩٣هـ) الخليفة العباسي الخامس، ويعد من أشهر الخلفاء العباسيين، ومن خيرة الخلفاء فقد كان يصلي في اليوم مئة ركعة، ويتصدق بألف، وكان يحب العلماء، ويعظم حرمات الدين، ويُبغض الجدال والكلام، محاسنه كثيرة وله أخبار شائعة في اللهو واللذات، وقد فتح الكثير من البلدان في زمنه، واتسعت رقعة الإسلام واستتب الأمن وعم الرخاء، وتميز عصره بالعلوم والحضارة والازدهار الثقافي والديني وأسس مكتبة بيت الحكمة في بغداد. (سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٢م، ج١، ص٢٨٧– ٢٩٥، بتصرف)، (وينظر مقال بعنوان: هارون الرشيد والعصر الذهبي للدولة العباسية، أحمد تمام، إسلام أون لاين).

واستدعى سند شخصية (هولاكو) [١] في قصيدة (طالع في النيل)، وفيها يقول:

وَضَعَ الغزاةُ عليه ميسمَ حقدِهم

وتراكبوا كُتَلًا

يمدونَ العيونَ إلى منابعهِ النبيلةِ

يزحفون من الشِّمالِ إلى الجنوبِ

يُمزِّقون هوى البراعمِ، ينقشونَ على الحجرْ

أشعارَ هولاكو، وعِزرا باوند الفاشيّ [٢]

حينما تحدث الشاعر عن غزو القوى الاستعمارية البريطانية لنهر النيل استحضر الشخصية التاريخية (هولاكو)، وشبه الغزاة به من خلال التصريح باسمه؛ لما يتمتع به من القوة البدنية، والقسوة والوحشية وعدم الرحمة، وقتل الملايين من أهل البلاد التي احتلها، والشاعر رأى هذه الصفات في أولئك الغزاة الذين أرادوا أن ينقشوا أفعاله ويثبتوها في احتلالهم لذلك النهر.

فهولاكو يستخدم رمزًا للقوة الغاشمة، والغزو الوحشي، واستدعاء هذه الشخصية يستدعي قضية وطن ضاع، ودولة انتهى حكمها، وفترة مظلمة في تاريخ الحضارة الإسلامية. وتوظيف هذه الشخصية عزز فكرة الشاعر المتجلية في بيان تأثير قوة الغزو على نهر النيل.

---

(١) هولاكو خان حفيد جنكيز خان، قائد المغول وحاكمهم، احتل معظم بلاد جنوب غرب آسيا بعد أن قتل الملايين من أهلها، واستولى على بغداد وأسقطها عام ٦٥٦هـ، بعد ذلك قام بتهديد المماليك وسلطانهم قطز الذي لم يهتز لكلماته والذي انتصر عليه في معركة عين جالوت.

(٢) رجعنا مع البادرات إلى الاستواء، مصطفى سند، ص١٣، ١٤.

الثالث: التناص مع أحداث تاريخية:

انعكست أحداث التاريخ الإسلامي في شعر مصطفى سند، واتخذها رمزًا؛ لتصوير الواقع الراهن، وإحساسه بمعاناة الأمة العربية، ومد جسور التواصل بين الأحداث وشخصياتها من جهة وبين تجربته الشعرية ومشاعره من جهة أخرى؛ رغبة في تحديث بنية القصيدة العربية. والشاعر لا يستحضر المواقف التاريخية من أجل سردها في النص، بل يختار منها مواقف مشعة مضيئة، تنبض بالحيوية فيعيد صياغتها لتتناغم مع التجربة الشعرية المعاصرة، فالشاعر المعاصر يعيد كتابة التاريخ ويمزجه بالواقع، وفق واقع معرفي جديد يجمع بين الماضي والحاضر ويستشرف آفاق المستقبل(١).

ومن الأحداث التاريخية التي وظفها الشاعر: حادثة اغتيال عبد الرحمن بن مُلجَم لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه – حين كان قائمًا يصلي صلاة الفجر في الجامع الكبير بالكوفة "في سنة أربعين للهجرة، في شهر رمضان لسبع عشرة خلت منه" (٢)، يقول في قصيدة (لا أحييك ولكنّي... تقدّم):

فلماذا يُحرقُ العصرُ مواثيقي ليُخفي عارَهُ في كل عينٍ

ترتدي عارَ المُخيّمْ؟

ولماذا أيها النائمْ في بيتِ رسولِ اللهِ

ليلَ الغدرِ، تزهو كائتلاق الجوهرْ

---

(١) ينظر: التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر، حسن البنداري وآخرون، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، ٢٠٠٩م، المجلد ١١، العدد ٢، ص٢٦٨.

(٢) الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: أبي الفداء القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ =١٩٨٧م، المجلد الثالث، ص٢٥٤.

تسجدُ الفجرَ فيأتيكَ ابنُ ملْجَمْ

حاملًا سيفًا وحقدًا

– أيها الساجد في المحراب والدنيا

بكاءٌ يخلعُ الأنفس هيّا نتقدّمْ

للقاءِ اللهِ.. إنّي ظالمٌ نفسي

وأنتَ الطاهرُ المغسولُ بالرفعة والحلْمِ.. تقدّمْ

نحو برقِ الشفرةِ المنحوتِ من فجرِ المخيّمْ (١)

تناص الشاعر مع الحدث التاريخي العظيم المتمثل في اغتيال ابن ملجم لعلي ابن أبي طالب– رضي الله عنه – وفي ثنايا هذا النص يُعبر الشاعر بالاستفهام الإنكاري عن استيائه من سلوك الناس الذين ينتهكون العهود والاتفاقيات ويخفون عارهم باللجوء إلى أساليب غير مشروعة، وعار المخيم: رمز للفساد والتدهور الأخلاقي أو الفشل الاجتماعي. ويوجه الشاعر نداءً للنائم في بيت رسول الله علي ابن أبي طالب – رضي الله عنه – ويتساءل لماذا يغتاله عبد الرحمن بن ملجم بسيفه وحقده وهو يسجد لله، ووجهه يُشرق نورًا وبهاءً كأنه جوهرة؟ لماذا تتعرض لهذا الظلم والغدر؟! ويوجه له الخطاب مرة أخرى حينما قُتل وهو ساجد والدنيا كلها تبكي عليه بكاءً يُسقط النفوس فيقول له: هيَّا تقدم للقاء الله، فلا ضير عليك أنت تُصلي ومظلوم أما أنا فظالم لنفسي، وأنت الطاهر من الذنوب المغسول منها بالرفعة والحلم. وهنا يعترف الشاعر بضعفه ويشعر بذنبه، ويأمر الطاهر بالتقدم نحو برق الشفرة المنحوت من فجر المخيم: أي انبثاق السطوع والتألق من بين الظلمات، وهو ما يرمز إلى الحكمة والنور الذي يشع من علي بن أبي طالب ومنهجه في الحياة، وفجر

(١) بيتنا في البحر، مصطفى سند، ص١١.

المخيم: يُشير إلى البدايات الأولى للإسلام، والمجتمع المسلم الذي كان علي بن أبي طالب أحد أبطاله وقادته.

وغاية الشاعر من استدعاء هذا الحدث بشخصياته نقل صورة الواقع المتردي الذي يعيشه ويعاني همومه وآلامه.

ومن الأحداث التاريخية المهمة التي غيرت الدنيا كلها وكان لها تأثير واسع في الحياة: ظهور شريعة التوحيد في مكة المكرمة، وفيها قال الشاعر في قصيدة (حوارية حب لمكة المكرمة):

يا سُرَّةَ الأرضِ المهيبة

كيف أسرجتِ النُهى

وقدحتِ شمسَ العِزِّ والأمجادْ ..؟

وشريعة التوحيدِ في ليلِ الأسى والشركِ

كيف كتبتِ في ورقِ الغمامِ

سريرةَ الفجرِ النديِّ وفطرةَ الأنسامْ؟ (١)

تجلى التناص هنا في استحضار شريعة التوحيد التي ظهرت بداية في مكة المكرمة؛ ولهذا ينادي الشاعر مكة المكرمة، ويتحاور معها: يا سُرَّةَ الأرض المهيبة تعبيرًا عن منزلتها الرفيعة ومكانتها العظيمة، كمركز الأرض، ويصفها بالمهيبة مما يدل على الهيبة والرهبة التي يشعر بها الشاعر تجاه هذا المكان، ويسألها: كيف أشرقتِ وأضأتِ بنور الهداية والحق بعد ظلمة الضلال؟ ويسألها مرة أخرى: كيف

(١) رجعنا مع البادرات إلى الاستواء، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم- السودان، د. ط، ٢٠٠٥م، ص٥٤.

أشعلتِ شريعة التوحيد ودين الإسلام في ليل الجاهلية والضلال؟ (ليل الأسى والشرك) يشير إلى الظلام الروحي الذي يعيشه الناس قبل التوحيد. ويسألها – أيضًا – كيف كتبتِ ذلك في السحاب في السماء، وفي الفجر الندي المشرق بعد الليل ومع نسمات الهواء المنعش الذي تثيره الرياح في كل الأرجاء؟ والجملة تشير إلى كيفية ظهور الإسلام في مكة المكرمة وبداياته وكيف انتشر في أنحاء العالم. والشاعر استخدم رموزًا دينية ومن الطبيعة؛ للتعبير عن الاحترام والتقدير والحب المتجاوز للحدود لهذا المكان المقدس، فإذا تتبعنا الكلمات والألفاظ اللغوية الموظفة سنجد عددًا من الإشارات المتعلقة بالحالة الشعورية والنفسية للشاعر التي تبعث الفرح والجمال والهيبة والحب.

والشاعر استدعى ذلك الحدث؛ لتكتسب القصيدة دلالات قيمية عميقة تزيد من قيمتها وجمالها لدى المتلقي؛ وليبين المكانة العظيمة لمكة المكرمة، وفضائلها، ولماذا هي سُرَّة الأرض.

ومن الأحداث التاريخية التي استلهمها الشاعر حادثة كربلاء [(١)]، ومما قاله عنها في قصيدته (ونقسم بالله إنا كبرنا):

المدينةُ أضحَتْ تمامًا أمام الرُّماةِ

تُباركُ جلَّادها المستبدَّ وترفعُ كلتا اليَدَينْ..

---

(١) حادثة كربلاء التي كانت بين الحسين بن علي – رضي الله عنه – ومن معه من أهل بيته، وبين جيش والي الكوفة عبيد الله بن زياد، والتي انتهت باستشهاد الحسين – رضي الله عنه – والكثير من أهل بيته، وكان سببها تولي يزيد بن معاوية للخلافة من بعد أبيه، فرفض البعض مبايعته؛ لأن الخلافة قائمة على الشورى كما كانت في عهد النبي – صلى الله عليه وسلم – وليس فيها وصاية، فرفض أهل الكوفة مبايعته وقالوا بمبايعتهم للحسين بن علي، فرحل من المدينة المنورة ذاهبًا إلى الكوفة، وأخذ معه أهله جميعهم ولكن أهل الكوفة غدروا به وخانوه وقتلوه في كربلاء، في العاشر من محرم سنة ٦١هـ.

تُوطئُ [١] كلَّ المداخلِ صوبَ الأوانسِ،

تُذْهَلُ عَمّنْ ذَهَبْنَ وعَمَّنْ بَقيْنْ..

عَمَّنْ تُمجِّدُ أحزانَها....

يا كربلاءُ استعدِّي فهذا بُراقُ الحُسينْ..

يُصاهلُ عِتْرةَ الخوفِ،

يسطعُ مثلَ المرايا.. الشُّموسِ...

المياهِ... اللُّجينْ..

يُسدَّدُ دَيْنًا .... وينجو بدَيْنْ..

إلى أن يقول:

جُرحٌ يقينٌ.. وفجرٌ عقيمٌ.. ومجدٌ قديمٌ..

ودَينٌ سقيمٌ... وشعبٌ يتيمْ.. [٢]

استدعى الشاعر (حادثة كربلاء التاريخية) في هذا النص الذي بدأه بوصف حال مدينة كربلاء – مع الحادثة التي تعرضت له – بالهشاشة والضعف، حيث أصبحت معرضة للهجوم من قِبل الرُماة، خاضعة مستسلمة رافعة يديها لجلادها الظالم، تُفتح كل الطرق أمام الأعداء ليدخلوا ويقتلوا من فيها خاصة الأوانس، وهي في حالة دهشة وصدمة مما آلت إليه الأمور سواءً من الذين غادروا أو الذين بقوا، وعن الألم والحزن الذي يعيشه أهلها، وكيف يصبح ذلك جزءًا من تاريخهم وهويتهم، وينادي الشاعر كربلاء: استعدي فقد جاء الحسين يواجه الخوف والموت ببسالة،

---

(١) توطئ: الصواب أن تكتب: تُوْطَأ.

(٢) إنها بردة الجمال، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم– السودان، ط١، ٢٠٠٦م، ص١١، ١٢.

وهو ابن الخليفة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وبراق الحسين يرمز إلى الأمل والفداء وقد وصفه الشاعر بعدة أوصاف: يطرد الخوف والهلع ويعيد الأمان إلى النفوس المضطربة، ويشع كالشمس والمرايا التي تعكس الضوء، ويتسم بالنقاء والطهر كالمياه ومعدن اللجين، وسيحقق النصر والعدالة وسينجو الناس من الظلم والاضطهاد. ويذكر الشاعر نهاية تلك الحادثة وأثرها العظيم على الأمة الإسلامية في جميع جوانبها؛ فجرح الأمة أصبح حقيقة وما زال أثره، وفجر ذلك اليوم عقيم، والمجد لا عهد للأمة به؛ لأنه قديم انتهى بانتهاء آل بيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– والدَيْن (الوفاء بالوعد) ضعيف، ويقصد به موقف أهل الكوفة مع الحسين وعدم الالتزام بالوعد وهو مبايعتهم له، والشعب من بعد استشهاده يتيم.

والتناص مع الحدث جاء بذكر جميع الأطراف: المكان والشخصيات: الحسين والجلَّاد، وذكر موقف تلك المدينة وأهلها من الحادثة، وما نتج عنها من أوجاع ومآسٍ، فجاء استدعاء المكان تعميقًا للتاريخ بأحداثه وشخوصه، والحسين رمز كل شهيد في قضية نبيلة. وفي هذا التناص دعوة لنصرة الحق، وعدم التخاذل أو الاستسلام والخوف من العدو.

وفي قصيدة (نهار السبت) يستحضر الشاعر الثورة التي حدثت في السودان نهار السبت الخامس من إبريل عام ١٩٨٥م [١]، وفيها يقول:

---

(١) تلك الثورة قادها اتحاد الطلبة في جامعة الخرطوم، وتبعها مظاهرات من جماهير الشعب السوداني الذين امتلأت بهم شوارع الخرطوم، وكان بعضٌ منهم يردد: الشوارع لا تخون. وكانت الثورة أو الانقلاب بسبب الغلاء والمجاعة وانقطاع الكهرباء والوقود؛ فالحياة تكاد تكون متوقفة تمامًا، ونتج عنها إعلان الوزير عبد الرحمن سوار الذهب استجابة الجيش لمطالب الشعب، وانتهاء حكم الرئيس جعفر النميري. (ينظر: مقطع يوتيوب بعنوان: "كنت هناك" يستعيد المشهد في السودان إبان ثورة ٦ إبريل عام ١٩٨٥م بشهادات من عايشوها، السبت ١٤ مايو ٢٠٢٢م، alaraby.com).

هذي الشوارعُ فجّرت أرحامُها الثوَّار،

تطهرُ من نجاساتِ القرونْ

هذي الشوارعُ لا تخونْ

هذي الشوارعُ دمدمت كالبحرِ

تُحْرِقُ في حناجرِها هوانَ الصمتِ،

–يا كفّ الرحى

دقّي على بابِ النّهارْ

بالريح – والمطرِ الذي يسقي جراحاتِ الديارْ [1]

الشاعر يشير إلى الشوارع مكانًا ولدت فيه الثورات والتحركات الاجتماعية، وبخاصة أحداث هذه الثورة التي كانت في نهار السبت – كما عنون لها – ويعبر عن الطهارة والنقاء من الظلم والفساد والقمع الذي عانى منه الشعب السوداني لأزمنة عديدة، وذلك الطهر جاء بعد الثورة، ويظهر الشاعر الثقة في الشوارع مكانًا للحقيقة وعدم الخيانة للثوار والولاء لتلك الثورة، وتلك الشوارع تشبه دمدمة البحر مما يعني أنها قوية ثابتة لديها القدرة على تحمل الصدمات والاهتزازات، كما أنها أظهرت صراخ المنتفضين الذي أحرق صمت الخنوع والاستسلام، وبعد هذا السرد الموجز لذلك الحدث ينادي الشاعر كف الرحى – رمزًا لانتهاء الثورة – بأن تدق باب النهار وتعلن عن بزوغ فجر جديد يأتي بالريح والمطر الذي يروي جراحات الوطن ويطهره من آثار القهر والاضطهاد، واستبشارًا بنجاحها وتحقيق المراد منها حتى لو كَثُر الشهداء فيها، كما يقول الشاعر:

(١) بيتنا في البحر، مصطفى سند، ص٤٦، ٤٧.

تمشي القبورُ.. وحولها الشهداءُ يبتسمونَ،
– يا وطنَ الشموسِ البكرِ
أعلنا هواكَ جسارةً
تعلو على صَلَفِ الزمانْ

فقوله: (تمشي القبور) تحمل دلالة قوية ترمز إلى التغيير الجذري والهائل؛ لأن الأموات هم أقصى من يمكن أن يتغير، وتؤكد ذلك الانقلاب من الشعب؛ حيث إنه لا يمكن للموتى أن يمشوا. والشهداء يبتسمون فرحًا بما حققوا من نصر في تلك الثورة. وينادي الشاعر وطنه ويخبره بإعلانهم حبهم له بكل جرأة وشجاعة تعلو على كبرياء الزمان وقسوته.

وأنسنة الشاعر لجملة (هذي الشوارع) وتكراره لها يؤدي وظائف رمزية تقوي من مضمون النص، وفيه إظهار الانتماء والحب للشوارع المقصودة، والشعور بالحنين أيضًا، والتأكيد على أهميتها في التغيير، والتكرار عزز المعنى وعمَّق دلالته، والأفعال (فَجّرت، تُطَهِّر، تُحْرِق) تثير الانفعال الشديد من الشاعر.

وتوظيف الشاعر لهذا الحدث تعبير عن قوة شعبه وشجاعته، وعدم رضاه بالظلم، ومحبته لوطنه وافتخاره به وبأبنائه. والشاعر في هذا الحدث استثمر عنصري الزمان والمكان في بناء التجربة الشعرية؛ لتخليد الزمن التاريخي للحدث.

ونخلص من هذا إلى أن توظيف التراث التاريخي في العمل الشعري يُضفي عليه "عراقة وأصالة، ويمثل نوعًا من امتداد الماضي في الحاضر، وتغلغل الحاضر بجذوره في تربة الماضي الخصبة المعطاء، كما أنه يمنح الرؤية الشعرية نوعًا من الشمول والكلية؛ إذ يجعلها تتخطى حدود الزمان والمكان، ويتعانق في إطارها الماضي مع الحاضر"[١].

(١) عن بناء القصيدة العربية، علي عشري زايد، مكتبة الرشد، الرياض، ط٥، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م، ص١٢٨.

نتائج البحث

١- حينما استحضر سند الأماكن التاريخية في نصه الشعري ظهرت مشاعره الحزينة تجاهها؛ لما لها من مكانة عميقة في التاريخ العربي الإسلامي، فأحيانًا يستشهد بالمكان مع ذكر أحداثه المهمة والإشارة إلى شخصياته كما في (القدس)، وأحيانًا أخرى يذكر ما فيه من أحداث، دون ذكر للشخصيات كما في (بغداد، الخرطوم، توريت، قيسان، الكرمك)، وبعض الأماكن تحدث عن ماضيها وحاضرها كـ (القدس، بغداد، سراييفو)، وهو في استلهامه لجميع الأماكن يخاطبها تارة وكأنها تصغي له، ويسرد الحديث عنها تارة أخرى، وظهرت تلك الأماكن كأنها لسان يعبر عن ماضيه وحاضره، وينطق بآلامه وهمومه.

٢- الشخصيات التاريخية التي وظفها سند لها دلالات واسعة في ذاكرة المتلقي؛ لأنها ضاربة في أعماق التاريخ، وقد استطاع أن يقول من خلالها ما لا يستطيع قوله مباشرة. وموقف الشاعر من الشخصية التي يستدعيها إما أن يتخذ منها قناعًا يبث من خلاله أفكاره التي يريدها، أو يحاورها، أو يتحدث عنها بذكر شيء من صفاتها مثل شخصية (هولاكو)، أو بعض أحداث حياتها كشخصية (عمار بن ياسر)، وقد يوظفها دون أن يذكر شيئًا له علاقة بها، وإنما يفهم قصده من الإتيان بها من السياق، كما في شخصيتي (عمار بن ياسر، والرشيد). وقد تكون الشخصية محور القصيدة كما في (شجرة الدر)، أو رمزًا فاعلًا في ثنايا النص. والشاعر قد يوظف الشخصية التاريخية؛ ليصف بها شخصية أخرى غير تاريخية؛ إعجابًا بتلك الشخصية التاريخية، كما في تشبيهه لعبد الوهاب الخليفة بعمار بن ياسر. وشخصيات سند التاريخية تنوعت ما بين شخصيات إيجابية ذات دور فاعل في مجتمعها كشخصية (عمار بن ياسر، شجرة الدر، الرشيد)، وشخصيات سلبية معادية كشخصية (هولاكو).

٣- الأحداث التاريخية المتناص معها متنوعة ما بين أحداث دينية، مثل (ظهور شريعة التوحيد)، وسياسية (كحادثة كربلاء، والثورة السودانية عام ١٩٨٥م)، وأيضًا أحداث سياسية بالأساس، ولكن العوامل الدينية والاجتماعية قد أدت فيها دورًا؛ لتعدد الروايات التي ذكرت تلك الحادثة (كحادثة اغتيال عبد الرحمن بن ملجم لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه). ولاحظنا تداخل الأحداث والشخصيات والأماكن فيما بينها؛ لتشكل رؤية تاريخية عامة، و"الشعر المحمل بالمرجعيات التاريخية من الأحداث والوقائع والشخصيات التاريخية يحمل دلالات جديدة، وينطلق من رؤية المبدع وحاجاته وهمومه، ومن متطلبات عصره، ويضفي بذلك انطباعات اكتسبتها ذاته، واختزنتها الذاكرة، وسعت إلى توظيفها في السياقات المتعددة، بأسلوب عصري، متجاوزًا التاريخ المنقضي"(١).

٤- اهتمام الشاعر بالتاريخ وتناصه معه جعل شعره مصدرًا ثريًا مهمًا، يُظهِر فخر الشاعر بمآثر العرب والمسلمين وتاريخهم، وتمسكه بالهوية القومية العربية.

---

(١) الحضور التاريخي في تجربة عبد العزيز المقالح الشعرية، سلطانة محمد رضوان، جامعة جرش للبحوث والدراسات، المجلد٢٣، العدد ١، ٢٠٢٢م، ص١٠٣.

المصادر والمراجع

أولًا- المصادر (مدونة البحث):

١-إنها بردة الجمال، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم -السودان، ط١، ٢٠٠٦م.

٢-أوراق من زمن المحنة، مصطفى سند، دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، ط٢، ١٩٩٤م.

٣-البحر القديم، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم -السودان، د. ط، ٢٠٠٥م.

٤-بيتنا في البحر، مصطفى سند، دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع، الخرطوم، ط١، ١٩٩٤م.

٥-درجة القبول في الحب والحلول، مصطفى سند، بيت الخرطوم للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠١م.

٦-رجعنا مع البادرات إلى الاستواء، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم -السودان، د. ط، ٢٠٠٥م.

٧-شفرة البحر الأخير، مصطفى سند، دار الأشقاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٠م.

٨-لك الحب، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم -السودان، ط١، ٢٠٠٩م.

٩-ملامح من الوجه القديم، مصطفى سند، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم - السودان، ط١، ٢٠٠٦م.

ثانياً- المراجـــــــــع:

١-استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر السعودي من عام ١٣٥١هـ إلى نهاية ١٤٢٦هـ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، إعداد: عبد الله خليفة السويكت، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٢٩هـ.

٢-استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، علي عشري زايد، دار الفكر العربي، القاهرة، د. ط، ١٤١٤هـ =١٩٩٧م.

٣-آفاق الرؤيا الشعرية، إبراهيم نمر موسى، وزارة الثقافة الفلسطينية، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٥م، د. ط.

٤-التناص الأسطوري في شعر محمود درويش، مفيد نجم، مجلة نزوى، العدد٥٩، ٢٠٠٩م.

٥-التناص (دراسة تطبيقية في شعر شعراء النقائض) جرير والفرزدق والأخطل، نبيل حسنين، دار كنوز المعرفة العلمية، عمان، ط١، ٢٠١٠م.

٦-التناص في شعر الرواد، أحمد ناهم، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٧م.

٧-التناص في الشعر الفلسطيني المعاصر، حسن البنداري وآخرون، مجلة جامعة الأزهر بغزة، سلسلة العلوم الإنسانية، ٢٠٠٩م، المجلد ١١، العدد ٢.

٨-الحضور التاريخي في تجربة عبد العزيز المقالح الشعرية، سلطانة محمد رضوان، جامعة جرش للبحوث والدراسات، المجلد٢٣، العدد ١، ٢٠٢٢م.

٩-دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر، قادة عقاق، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ٢٠٠١م.

١٠-دليل الناقد الأدبي، ميجان الرويلي وسعد البازعي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط٥، ٢٠٠٧م.

١١-علم النص، جوليا كريستيفا، ترجمة: فريد الزاهي، مراجعة: عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء- المغرب، ط١، ١٩٩١م.

١٢-عن بناء القصيدة العربية، علي عشري زايد، مكتبة الرشد، الرياض، ط٥، ١٤٢٤هـ= ٢٠٠٣م.

١٣-فاعلية الذاكرة في الكتابة الشعرية، خليل شكري هياس، منتديات ستار تايمز، ٢٢/ ٧/ ٢٠٠٨م.

١٤-قناة النيل الأزرق، حلقة في اليوتيوب بعنوان: مساء جديد- زول في الخاطر (الراحل مصطفى سند) - مع الفنان صلاح مصطفى، ٨/٢/ ٢٠١٩م.

١٥-الكامل في التاريخ، ابن الأثير، تحقيق: أبي الفداء القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٧هـ =١٩٨٧م، المجلد الثالث.

١٦-مصطفى سند حياته وتجربته الشعرية، واثق بابكر محمد، بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية، جامعة أم درمان الإسلامية، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

١٧-معجم الأوزان الصرفية، إميل بديع يعقوب، عالم الكتب، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ =١٩٩٢م.

١٨-المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ= ٢٠٠٤م.

١٩-مقال بعنوان: ١٨ أغسطس ١٩٥٥م والذكرى الـ ٥٨ على حوادث توريت، بكري الصائغ، ١٧ أغسطس ٢٠١٣م، صحيفة الراكوبة.

٢٠-النص الغائب (تجليات التناص في الشعر العربي)، محمد عزام، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ٢٠٠١م.